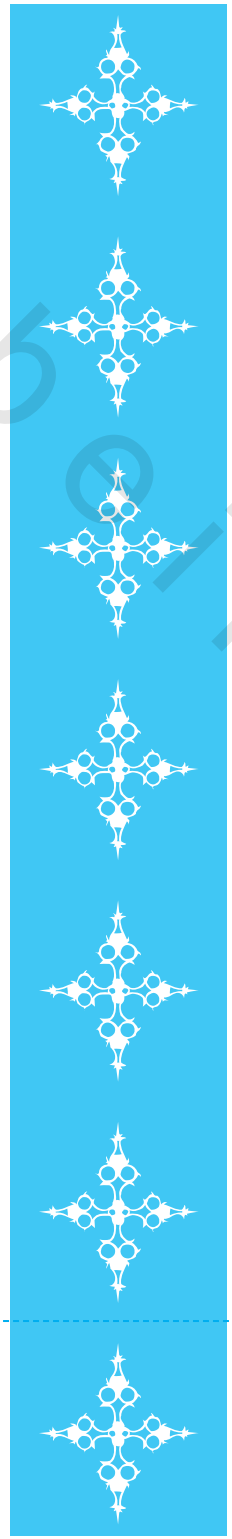

ملحقات الكتاب

obeikandl.com

د. عبدالله عبدالغني سرحان

التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات

التفسير، والتأويل، والبيان، والاستنباط، والفهم

الحمد لله الذي ميز الإنسانَ بالعقلِ والتَّفَكُّرِ، وأنعم عليه بنعمةِ التدبر، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فبادئَ ذي بدء أشكرُ جميع القائمين على إقامة وإعداد هذا الملتقى بدعوتهم الكريمة لي للحضور والمشاركة بالمداخلة ضمن فعالياتِ هذا الملتقى الفريد من نوعه في اسمه وغايته، وأدعو مخلصًا أن يحقق الأماني والتطلعات المرجوة من وراء انعقاده.

ولا أخفي على حضراتكم حينما وصلتني الدعوة الكريمة، وطالعتُ المحاور الأساسية والفرعية لهذا الملتقى أني شعرتُ برهبة شديدة ؛ لأن هذا الموضوع، وإن بدا في ظاهره موضوع مطروق متردِّدٌ في أروقة العلم والعلماء إلا أنه في الحقيقة موضوع حيوي شائق وشائك ؛ لأن التدبر من وجهة نظري هو أساس اكتساب المعارف والعلوم عند الأفراد والأمم في كل زمان ومكان مذ بدء الخليقة، وحتى قيام الساعة،

فالتدبر يعد أساس الحضارات والإبداعات والابتكارات المختلفة في شتى العصور.

بل إن التدبر هو أساس الخير في هذه الحياة، ونظيره التدبير هو أساس الشر في هذه الحياة أيضًا، فالشرير المتمكن في شره، والمجرم العاتي في إجرامه لن يكون لإجرامه أثر كبير، ولشره ضرر عظيم إلا إذا حاك خطته الإجرامية حياكة منظمة، وعَمِل على تدبير الشر، واصطناع المكر والحيلة اصطناعًا عظيمًا.

وَلْنُعَدِّ عن ذا، ولنركز على التدبر المذكور في القرآن الكريم، ومدى علاقته بغيره من المصطلحات القرآنية الأخرى (التفسير، التأويل، البيان، الاستنباط، الفهم) وكلها مصطلحات وردت في القرآن متفاوتة من حيث العدد قلة وكثرة.

ونظرًا لأني لم أطالع تفصيل محاور المؤتمر، وأوراق العمل المقدمة فيه حتى يكون صلب المداخلة منصبًّا على شيء ما، فقد فكرت أن تكون مداخلتي متسعة بعض الشيء قد تلتقي في نواح منها مع ما سيقال، وقد تختلف في نواحٍ أخرى، ومن ثم سأعرض مرئياتي حول هذا الموضوع المهم جدًّا.

لكِنْ قبل أن أخوض في حقيقة التدبر وما يتعلق به، ومدى صلته بهذه المصطلحات القرآنية ينبغي أن أؤكدَ على أمرين مهمين:

الأول: يجب أن يكون القرآن الكريم هو منطلقنا في تحرير وتأصيل وبيان الفروق بين هذه المصطلحات من واقع الاستعمال والسياقات المختلفة؛ لأن الذكر الحكيم يتميز عن كلام البشر أجمعين بانتقائه مفردات وصيغٍ يستخدمها الاستخدام الأمثل والأدق، ولا يصح وضع غيرها مما قد يقاربها البتة موضعها.

الثاني: أن هذه المصطلحات القرآنية السالفة بينها حتمًا فوارق دقيقة، وإلا -عقلاً ومنطقًا- لو كانت متحدة في معناها من جميع الوجوه لاكتفى المولى عز وجل بإحداها

عن الأخرى في الذكر الحكيم، وعلى ذلك فإن المقصود بالتدبر يختلف عن غيره من بقية المصطلحات لكنه ليس اختلافًا متضادًّا كالاختلاف بين القيام والجلوس، والنوم واليقظة، والمرض والصحة، والضحك والبكاء، فهذه المصطلحات لا يمكن أن تجتمع معانيها بأي وجه من الوجوه، عكس المصطلحات محل الدراسة، فهي وإن افترقت من وجه فإنها قد تلتقي من وجه آخر مثل التقاء معاني الأفعال: [حَصْحَصَ وظَهَرَ، ونَتَقَ وَرَفَعَ، وَقَطَعَ وَانْفَصَلَ] من وجه، وافتراقها من وجه آخر، وكما قلنا: سيكون القرآن الكريم بعد تحرير هذه المصطلحات في اللغة هو منطلقنا لبيان الفروق الدلالية، والعلاقات القائمة بينها.

أولًا: تحرير مفهوم التدبر في اللغة والقرآن الكريم:

التدبر مصدر للفعل الماضي الخماسي (تَدَبَّر) على وزن تَفَعَّلَ، ومعناه لغة: التفكر والنظر في عواقب الأمور وأدبارها، يقول صاحب تاج العروس: «التَّدَبُّرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأَمْر أَي: إلى ما يَؤُول إِليه عاقِبَتُه كالتَّدَبير، وقيل: التَّدَبُّر: التَّفكُّر أي تَحْصِيل المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالثة، ويقال: عَرَف الأَمرَ تَدَبُّرًا أَي بأَخَرَةٍ»(١).

ومجيء التدبر على صيغةِ التَّفعُّلِ فيه دلالة على التكلُّفِ في الفعلِ، ومعاناته وحصولِه بعد جُهْدٍ، يقال: تدبر المسألة أي تفكر فيها، وتأمل في دلالتها، وبذل جهدًا مرة بعد مرة حتى وعاها، ووقف على حقيقتها، فالتدبر ملازم دائمًا لبذل الجهد والمشقة والمعاناة مما يدل على أنه يحتاج إلى وقت للوصول إلى حقيقة الشيء الذي يتدبره الإنسان أو أجزائه أو سوابقه أو لواحقه أو أعقابه.

ولم يرد مصطلح التدبر مطلقًا في القرآن الكريم بهذه الصيغة بل وردت صيغ

---

(١) تاج العروس ١/ ٢٨١٣ مادة (د ب ر).

obeikandi.com

أخرى من مادة (دَبَر) في الذكر الحكيم في عدة آيات على النحو الآتي:

أولًا: ورد الفعل المضارع (يُدَبِّرُ) (٤ مرات) وهو من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (دَبَّرَ):

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾ [يونس: ٣].

٢- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

٤- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

يتضح لنا من هذه الآيات السابقة عدة أمور:

أولًا: جاء التعبير فيها جميعها بالفعل المضارع (يُدَبِّرُ).

ثانيًا: المدبِّر في جميع الآيات (أي الفاعل المحذوف) هو الله عز وجل.

ثالثًا: المدبَّر (أي المفعول المذكور) في جميع الآيات هو الأمر، والأمر هنا ورد معرفًا بأل، وتعريفه بأل يفيد الاستغراق والعموم الكلي لجميع أنواع الأمر، وهذا حق لا مرية فيه كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[الأعراف: ٥٤]، أي له أمر كل شيء سبحانه وتعالى صغيرًا وكبيرًا، قليلاً وكثيرًا، دقيقًا وجليلاً، وقد صرحت الآية الثانية بما قلناه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

ثانيًا: ورد اسم الفاعل (مُدَبِّر) من الماضي الرباعي (دَبَّرَ) في موطن واحد فحسب في قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] ففي هذه الآية «يقسم المولى عز وجل بالملائكة التي تدبر الأمر، وهو شئون الكون المختلفة في الرياح والأمطار والأعمار والأرزاق وغير ذلك من شئون الدنيا»[(١)]، وهنا مفارقة دقيقة فالملائكة تدبر أمرًا ما، والله يدبر الأمر كله.

نستنتج من هذا أن الله عز وجل وصف نفسه بأنه المدبِّر، وأنه يدبر أمور الخلائق كلها دون استثناء فالله هو المدبِّرُ، والأمر هو المدبَّر، كما وصف الملائكة المقربين بذلك أيضًا، ولكنهم يدبرون أمرًا ما بإذنه سبحانه وتعالى لا يتجاوزونه.

ثالثًا: ورد الفعل المضارع المتصل به واو الجماعة (يَتَدَبَّرُونَ) من الفعل الماضي الخماسي (تدَبَّرَ) مرتين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، والخطاب في آية النساء موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم قبل هذه الآية، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ استفهام إنكاري ينكر عليهم عزوفهم عن القرآن وعن قراءته بتدبر وأناة، وأنهم لو تدبروا القرآن حق التدبر لانخلعوا عن نفاقهم الذي سيودي بهم إلى الدرك الأسفل من النار، ولما كان المنافقون لا يتدبرون القرآن فيفهم من ذلك بمفهوم المخالفة،

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٦٧٨ بتصرف.

وفحوى الخطاب أنَّ المتدبرين حقًّا هم المؤمنون.

والخطاب في آية سورة محمد موجه للمنافقين الذين يتحدث السياق القرآني عنهم قبل هذه الآية أيضًا، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ استفهام إنكاري توبيخي أيضًا.

والمراد بالقرآن في آية النساء ومحمد القرآن كله حيث جاء معرفًا بأل التي تفيد الاستغراق، نصل من ذلك إلى أن الذي لا يتدبر القرآن كُلَّه هو المنافق، وأن المتدبِّر للقرآن كله هو المؤمن، وأن المتدبَّر هو القرآن كله مسموعًا أو مقروءًا، فمعنا إذنً مصطلحان قرآنيان مستنبطان من هاتين الآيتين (المتدبِّر هو المؤمن، والمتدبَّر هو القرآن).

ونستنتج من ذلك أيضًا إلى أن مَن تدبر القرآن، وتأمل معانيه، وتبصر ما فيه سيصل إلى نتيجة فحواها أن القرآن كله كلام الله ليس فيه اختلاف البتة؛ لأنه لو كان من عند غير الله لوجد المتدبر فيه اختلافًا، ولما لم يجد المتدبر فيه اختلافًا ثبت أن القرآن من عند الله، فمن أراد من المنافقين والكفار أن يقف على تلك الحقيقة عليهم أن يقرأوا القرآن كله بتدبر، أما القراءة السريعة والهذُّ والهذرمة التي لا تأمل فيها فلن تُوَصِّلَ إلى تلك النتيجة، كما يلاحظ أن آية سورة محمد قد أشارت إلى أن آلة التدبر هي القلوب المفتوحة، أما القلوب المنغلقة القاسية التي كأنها مكبلة بالأغلال، والأقفال الحديدية لا ينفذ إليها نور الإيمان ونور القرآن، وهذا يعني أن التدبر له شروط وضوابط لا بد أن يسير عليها المتدبر وسوف نبين ذلك لاحقًا إن شاء الله تعالى.

٤- ورد الفعل المضارع (يَدَّبَّرُوا)[1] من الماضي الخماسي (تَدَبَّرَ) مرتين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

والخطاب في آية سورة المؤمنون موجه إلى كفار مكة كما هو واضح من الآية السابقة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٧] حيث كان كفار مكة يسمرون، ويذكرون القرآن بالهجر، ويقولون: إنه سحر وشعر وكهانة، فالخطاب لكفار مكة، والاستفهام في قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ استفهام توبيخي إنكاري ينعي عليهم أنهم لو تدبروه لصدقوا بما فيه، وعلموا أنه كلام رب العالمين.

وعبر عن القرآن هنا بالقول؛ لأنهم يسمعونه مقولاً، ولا يقرؤونه قراءة، وهو تعبير دقيق جدًّا في هذا السياق.

نستنتج من هذا أن كفار قريش لم يكونوا من المتدَبِّرين في القرآن الكريم، وبمفهوم المخالفة -كما يقول الأصوليون- يكون المؤمنون هم (المتدبرون)، والمتدبَّرُ هو القول المراد به هنا القرآن الكريم أيضًا.

أما في آية ص، فالفاعل في قوله: (لِيَدَّبَّرُوا) هو واو الجماعة الذي يعود على المؤمنين

(١) أصله يتدبروا حذفت التاء وشدِّدت الدال. يقول أبو حيان : «قرأ الجمهور: چ ﭽ چ ، بياء الغيبة وَشَدِّ الدال وأصله ليتدبروا. وقرأ عليٌّ بهذا الأصل، وقرأ أبو جعفر: بتاء الخطاب وتخفيف الدال؛ وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما، والأصل: لتتدبروا بتاءين، فحذفت إحداهما على الخلاف الذي فيها، أهي تاء المضارعة أم التاء التي تليها؟ واللام في ليدبروا لام كي، وأسند التدبر في الجميع، وهو التفكر في الآيات، والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء، وأسند التذكر إلى أولي العقول؛ لأن ذا العقل فيه ما يهديه إلى الحق وهو عقله، فلا يحتاج إلا إلى ما يذكره فيتذكر». البحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٣٣٨.

obeikandl.com

بدليل كاف الخطاب في قوله: (إِلَيْكَ) أي أنزلناه إليك ولأمتك خاصة، وبدليل وصفه بكونه مبارك، وبدليل السياق السابق، كل هذا يرشحُ أن يكون المقصود بواو الجماعة هم المؤمنون، والمعنى: أنزلنا هذا الكتاب إليك ليتدبر مَنْ معك من المؤمنين آياته وليتعظ به أولوا العقول الرشيدة، وبناء على ذلك أيضًا يكون المفعول الواقع عليه التدبر هو آيات الكتاب، فالمتدَبِّرون إذن بصيغة اسم الفاعل هنا هم المؤمنون، والمتدبَّر هو آيات الكتاب.

وهنا لفتة رائعة، ومفارقة دقيقة، المؤمنون يتدبرون ويتأملون في المكتوب نصًّا، ويتدبرون في المقروء والمسموع بالفحوى ؛ لأن من يتأمل يجد أن التدبر في المكتوب جاء في آية واحدة في سورة ص، والتدبر في القرآن ورد في آيتين النساء ومحمد، والتدبر في القول ورد في آية (المؤمنون)، وكأن الذكر الحكيم يجعل التدبر في المقروء المسموع أكثر وهذا شيء بدهي وطبيعي ؛ لأن من يُحسن سماعًا يحسن فهمًا وتعقلاً واستجابةً.

أما المقيد المكتوب؛ فإن المرء لو لم يتدبره من المرة الأولى فسيعود إليه مرة أخرى ولن يَتَفَلَّتَ منه؛ لأنه مقيد مكتوب، فهل يقدر مخلوق على الإتيان بمثل هذا التفاوت العجيب والرشيد في هذه الصياغات؟![1]، والأمر يطول بنا لو توقفنا عند الأسرار

(١) العجيب أن الذكر الحكيم استخدم الماضي الرباعي (أَدْبَرَ) ٤ مرات، واسم الفاعل منه (مُدْبِر) ٨ مرات، والمصدر (إدبار) مرة واحدة في سياقات مختلفة تمامًا لا صلة لها بما نحن فيه، كما استخدم اسم الفاعل من (دَبَرَ) ٤ مرات، ولم يستخدم هذا الفعل الثلاثي مطلقًا، كما استخدم الجمع (دُبُر) ٥ مرات، وجمع الجمع (أدبار) ١٣ مرة في سياقات لا صلة لها بما نحن فيه أيضًا، وكل هذا ينبئ عن أن القرآن الكريم يضع كل صيغة في مكانها الأشكل بها ولا يمكن أن يسد غيرُها مسدها، وهذا من دلائل إعجازه في اختيار صيغه بما لا يسمح الوقت بالاستفاضة فيه، يراجع المواضع السابقة في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ٢٥٢، ٢٥٣.

البلاغية الكامنة وراء التعبير بكل صيغة على حدة، وما ذكرناه كان هذه لمحة سريعة، والإشارة تغني عن العبارة، وبخاصة في الحديث مع أولي الألباب.

وهكذا يلوح لنا أن الذكر الحكيم يقصر التدبر على شيئين: القرآن مقروءًا ومقولاً، أي مسموعًا، والقرآن مكتوبًا، وبين الاثنين علاقة قوية، وصلة شديدة ملتحمة لا تنفصم ولا تنقطع، فالمتدبر يتدبر المكتوب والمحفوظ في الصدور، والسامع يتدبر المقروء على الألسنة، هذا ما قد يُسْتَنْبَطُ مِنْ تَدَبُّرِ حديث القرآن عن هذه الآيات.

وما دام القرآن هو منطلقنا في تحرير وتأصيل المصطلحات، فالذي يتناغم مع ذلك أن يكون التدبر مقصورًا على القرآن مقروءًا ومكتوبًا ومسموعًا، ومتابعة للذكر الحكيم لا يُطلَق مصطلح التدبر على التفكر في الكون والنفس الإنسانية صراحة ؛ لأن القرآن لم يُطلِقْ عليه ذلك بل أطلق عليه عبارات أخرى مثل: التفكر والتذكر والنظر والاعتبار كما سيأتي، وما جاء على ألسنة علمائنا في كتب التراث إنما هو من قبيل التسامح في العبارة فحسب، وليس هذا من مصطلحات القرآن الكريم وإطلاقاته.

ولكن مما ينبغي الإشارة إليه -كما سيأتي- أننا بالقياس على أن التدبر يكون في القرآن الكريم كتابة (رسمًا وخطًّا) وقراءة وسماعًا يكون التدبر كذلك في الحديث الشريف كتابةً وقراءةً وسماعًا، وكذلك الحال في سائر علوم المسلمين المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وكلام العرب كله شعره ونثره، وهكذا نتوسع بالتدبر إلى جميع آفاقه ومجالاته الرحبة، وليس هذا منا ابتعادًا عما أَصَّلْنَاه من قبل، ولكنه قياس عليه، وهو قياس صحيح جدًّا إن شاء الله تعالى، فعلوم المسلمين يجب أن تُقْرَأَ وتدرس بنفس كيفية التدبر ذاته في القرآن الكريم.

ومن ثَمَّ يتبين لنا بعد هذا كله أن أركان التدبر كما ظهرت لنا بجلاء من هذه

الآيات تتمثل في ثلاثة أمور:

الأول: المُتَدَبِّرون: هم الكافرون والمنافقون والمؤمنون وكل هؤلاء يجب أن يتدبروا القرآن بقلوب مفتوحة، وعقول واعية ليصلوا إلى المراد من وراء التدبر فتدبر هؤلاء تحكمه شروط وضوابط يجب أن تُراعى.

الثاني: المُتَدَبَّرُ: هو القرآن كله مسموعًا ومقروءًا ومكتوبًا بمختلف ما فيه، وبما اشتمل عليه من شرائع وعقائد وأخلاق وقصص.

الثالث: عملية التدبر ذاتها وطريقتها وكيفيتها.

❖ ❖ ❖

ثانيًا: تحرير مصطلح التفسير لغة:

صيغة تفسير مصدر على وزن تفعيل من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (فَسَّر)، ويعني في اللغة: البيان وكشف المغطَّى، يقول ابن منظور «الفَسْرُ: البيان. فَسَر الشيءَ يفسرُه بالكَسر، وتَفْسُرُه بالضم، فَسْرًا، وفَسَّرَهُ: أَبانه، والتَّفْسيرُ مثله. ابن الأَعرابي: التَّفْسيرُ والتأْويل والمعنى واحد، وقوله عز وجل: وأَحْسَنَ تَفْسيرًا ؛ الفَسْرُ: كشف المُغَطَّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل»[1]. فالتفسير على ذلك هو كشف المغطى، وبيان المراد من الألفاظ المشكلة.

وقد ورد في الذكر الحكيم في آية واحدة [2] في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

(١) لسان العرب مادة (ف س ر).

(٢) هذه اللفظة من الألفاظ الفرائد مادة وصيغة في القرآن الكريم، فهي لم ترد إلا في هذا الموضع في الذكر الحكيم، ولكاتب هذه السطور بحث بعنوان «من الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية» ذكر فيه أسرار استخدام الذكر الحكيم لبعض الألفاظ التي وردت مرة واحدة لم تتكرر على أي صيغة من الصيغ، بل هي فريدة وحيدة لفظًا ومعنًى مثل: «نَتَقْنَا، حَصْحَصَ، فَارِهِينَ، ابْلَعِي، اخْلَعْ، غَلَّقَتْ» إلخ.

obeikandl.com

﴿جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

والتفسير هنا يحتمل أن يكون بمعنى أحسن بيانًا وتفصيلاً، أو كشفا للحجة والدليل، أو أحسن تفسيرًا من مَثَلِهم كما يقول كثير من المفسرين.

لكن يلاحظ أن الذي أَتَى هنا بأحسن التفسير هو المولى عز وجل حيث نسبه لنفسه في قوله: ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، والذي أُتِيَ به إليه هو النبي ﷺ بدليل كاف الخطاب في قوله: ﴿جِئْنَاكَ﴾، وكأن المعنى: ولا يأتونك (أي الكفار) يا محمد بحجة وشبهة فاسدة من كلامهم إلا أتينا بحجة تدمغ هذه الحجة الباطلة، وحجتنا هي أقوى وأحسن بيانًا وكشفًا وإيضاحًا «ومعنى كونه أحسن أنه أحق في الاستدلال، فالتفضيل للمبالغة إذ ليس في حجتهم حسنٌ، أو يراد بالحسن ما يبدو من بهرجة سفسطتهم وشُبههم فيجيء الكشف عن الحق أحسن وقعًا في نفوس السامعين من مغالطاتهم فيكون التفضيل بهذا الوجه على حقيقته؛ فهذه نكتة من دقائق الاستعمال ودقائق التنزيل»[1] إذن لدينا هنا مصطلحان مُسْتَنْبَطَانِ من هذه الآية الكريمة:

المُفَسِّر: هو الله عز وجل.

والمفسَّر له: هو الرسول ﷺ؛ هكذا بإطلاق القرآن.

ومن ثم نتساءل: هل يجوز أن نُسَمِّيَ آخرين بهذه التسمية أو بمعنى آخر؟ هل يجوز أن نطلق على الذين يكشفون عن معاني القرآن مفسِّرين؟

نعم؛ بالقياس على ذلك يجوز، شريطة أن يكون المفسر كاشفًا الحق موضحًا له مُبينًا عنه دامغًا به الباطل، وما عدا ذلك لا يُسَمَّى مفسِّرًا، وهذا الأمر هو ما جرى عليه علماؤنا، ولم يخفَ عليهم، ولذا عرفوا المفسِّر بقولهم: «مَن له أهلية تامةٌ يعرف بها

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/ ٢٩٦٤.

مراد الله تعالى بكلامه المتعبد بتلاوته، قدر الطاقة البشرية، وراضَ نفسه على مناهج المفسرين، مع معرفته جُملاً كثيرة من تفسير كتاب الله، ومارس التفسير عمليًّا بتعليم أو تأليف»[1].

وإذا كان التفسير هو البيان والكشف عن المعنى فبينه وبين التدبر تلازم واضح وعلاقة شديدة الاتصال والالتحام؛ لأن المتدبِّرَ إذا تدبر وفق ضوابط وشروط التدبر فسوف يزيل الشبهات، ويوضح الالتباسات، ويكشف عن المعاني المرادة من الألفاظ والجمل بل من السورة القرآنية بله القرآن كله، فالتدبر على ذلك وسيلة، والتفسير غاية.

وإذا كانت مهمةُ المفسِّر هي بيان المراد من معاني وأحكام القرآن، فَمِنْ ثم يلزم المفسر أن يتسلح بكافة العلوم التي تعينه على الكشف عن المعاني والأحكام، فلا يصح أن يُفسر أحدٌ القرآن، وهو لا يدري شيئًا عن طرائق العرب في أساليبهم شعرًا ونثرًا ؛ لأن القرآن الكريم نزل على طرائقهم الأسلوبية، وطبائعهم اللغوية بنظم معجز.

وهنا يجدر بنا أن نذكر العلوم أو الأدوات التي يحتاج إليها المُتَدَبِّرُ والمُفَسِّرُ على حد سواء ما دامت العلاقة وطيدة بينهما كما بينا فنقول: «اشترط العلماء في المفسِّر الذي يريد أن يُفسِّر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون مُلِمًّا بجملة من العلوم التي يستطيع بواسطتها أن يُفسِّر القرآن تفسيرًا عقليًّا مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصم المفسِّر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم، وإليك هذه العلوم مفصَّلة، مع توضيحٍ لكل علم منها من الأثر في الفهم وإصابة وجه الصواب:

(١) قواعد الترجيح عند المفسرين، للشيخ حسين الحربي ١/ ٣٣.

الأول: علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب»، ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر في ذلك؛ لأن اليسير لا يكفى، إذ ربما كان اللفظ مشتركًا، والمفسِّر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

الثاني: علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره، أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سُئِل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حُسن المنطق، ويقيم بها قراءته فقال: حَسَنٌ فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فَيَهْلَكُ فيها.

الثالث: علم الصرف: وبواسطته تُعرف الأبنية والصيغ. قال ابن فارس: «ومَن فاته المعظم، لأنَّ (وَجَدَ) مثلاً كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها»، وحكى السيوطي عن الزمخشري أنه قال: «من بدع التفاسير قول مَن قال: إن (الإمام) في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٧١]: جمع (أُمٍّ)، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف، فإن (أُمًّا) لا تُجمع على إمام!».

الرابع: الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين، اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلاً، هل هو من السياحة، أو من المسح؟

الخامس، والسادس، والسابع: علوم البلاغة الثلاثة (المعاني، والبيان، والبديع): فعلم المعاني يُعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان يُعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها،

وعلم البديع يُعرف به وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسِّر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يُدرك إلا بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسِّر أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى، وما يجوز، وما يُستحَل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسِّر في ورطات.

العاشر: علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم.

الحادي عشر: علم أسباب النزول: إذ إن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية.

الثاني عشر: علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن.

الثالث عشر: علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكم من غيره، ومَن فقد هذه الناحية ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع في الضلال والإضلال.

الرابع عشر: الأحاديث المبيِّنة لتفسير المجمل والمبهم؛ ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه.

الخامس عشر: علم الموهبة: وهو علم يُورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه

الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وبقوله ﷺ: «مَن عمل بما علم وَرَّثه اللهُ علم ما لا يعلم».

قال السيوطي: بعد أن عَدَّ علم الموهبة من العلوم التي لا بد منها للمفسِّر: «ولعلك تستشكل علم الموهبة، وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الإنسان، وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد. قال في البرهان: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا تظهر له أسراره، وفي قلبه بدعة أو كبر، أو هوى أو حب دنيا، أو هو مُصِرٌّ على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسِّر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حُجُب وموانع بعضها آكد من بعض»، قلت: وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، قال ابن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن. أخرجه ابن أبي حاتم.

هذه هي العلوم التي اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالى، وقد ذكرناها مسهبة مفصَّلة، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضًا وأعرض عن بعض آخر، ومنهم مَن أدمج بعضها في بعض وضغطها حتى كانت أقل عددًا مما ذكرنا، وليس هذا العدد الذي ذكرنا حاصرًا لجميع العلوم التي يتوقف عليها التفسير، فإن القرآن -مثلًا- قد اشتمل على أخبار الأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم، وهي أمور تقتضي الإلمام بعلمي التاريخ وتقويم البلدان، لمعرفة العصور والأمكنة التي وُجِدت فيها تلك الأُمم، ووقعت فيها هذه الحوادث...»[1].

وإذا كان الأمر كذلك فمن قال بغير ذلك فقد جانبه الصواب، يقول الشيخ

(١) التفسير والمفسرون للشيخ الذهبي ١/ ٢٤٨ : ٢٥١.

مساعد: «إذا كانت مهمة المفسِّر بيان معاني القرآن، فإنَّه عند تأمُّل هذه العلوم، وفحصها سيظهر ما يأتي: أنَّ بعضها لا يلزم المفسِّر معرفتها، كعلم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وأنَّ بعضها يكفيه منها مبادئ العلم دون الدخول في تفصيلته، كعلم النحو، وأنَّ بعضها يحتاج منه جزءًا معيَّنًا، كمعرفة دلالة الألفاظ من علم اللغة، ولا شكَّ أنَّ من حصَّل هذه العلوم كان أوسع بحثًا وتقريرًا في تفسيرِه، لكنه فيما يكون خارجَ حدِّ البيان عن معاني القرآن»(١).

❖ ❖ ❖

ثالثًا: تحرير مصطلح التأويل لغة:

صيغة تأويل مصدر على وزن تفعيل، وهو مصدر من الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (أَوَّل)، ويعني في اللغة الرجوع والتقدير والتفسير، يقول ابن منظور: «أَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله: دَبَّره وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله: فَسَّره. وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩] أي لم يكن معهم علم تأْويله، وهذا دليل على أَن علم التأْويل ينبغي أَن ينظر فيه، وقيل: معناه لم يأْتهِمْ ما يَؤُول إليه أَمرهم في التكذيب به من العقوبة.

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩]، وفي حديث ابن عباس: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّيْنِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيْلَ». قال ابن الأَثير: هو من آلَ الشيءُ يَؤُول إلى كذا أَي رَجَع وصار إليه، والمراد بالتأْويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إلى ما يَحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أَن يقول في ركوعه وسجوده:

(١) مفهوم التفسير للشيخ مساعد الطيار ١/ ٤٤.

obeikandi.com

«سبحانك اللهم وبحمدك» يَتأَوَّل القرآنَ، تعني أَنه مأْخوذ من قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ [النصر:٣]...»[1].

فالتأويل على ذلك له عدة معانٍ: التفسير والتوضيح والكشف، والرجوع أي: رجوع الألفاظ والجمل إلى معانيها المرادة منها، ونقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إِلى ما يَحتاج إِلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ.

وقد ورد هذا المصطلح في الذكر الحكيم (١٧) مرة:

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٦].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ٢١].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ ﴾ [يوسف:١٠١].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ [يوسف: ٤٤].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨].

قَالَ تعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ

---

(١) لسان العرب مادة (أ و ل)، وجعل الراغبُ في مفردات ألفاظ القرآنِ ٩٩ التَّأويل من الأَوْل، أي: الرُّجوع إلى الأصلِ، وجعل ابن فارس في مقاييس اللُّغةِ ١/ ١٥٨ مادَّة أول ترجعُ إلى أصلين: ابتداءُ الأمر، وانتهاؤه، ويظهرُ أَنَّهما يشتركانِ في معنى الرُّجوع الذي نصَّ عليه الرَّاغبُ، ولو جُعِلَ أصلاً واحدًا لكانَ أَوْلَى، فالأوَّل من الأشياءِ يرجعُ إليه ما بعدَه مما تأَخَّرَ عنه.

فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ ﴾ [يونس: ٣٩].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٧].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: ٤٥].

ومن يتأمل سياق هذه الآيات يلاحظ أن **المؤَوَّل** (أي الواقع عليه التأويل) في

هذه الآيات جاء متنوعًا: فقد يكون متشابهًا من القرآن كما في سورة آل عمران، أو رجوعًا إلى كتاب الله وسنة رسوله كما في سورة النساء، أو بيانًا لعاقبة ما وُعِدوا به من العذاب كما في سورة الأعراف، أو تفسيرًا لأحلام وأحاديث ورؤى كما في آيات سورة يوسف، أو كشفًا لأمر السفينة والغلام والجدار كما في سورة الكهف.

كما يلاحظ أنَّ **المؤَوِّل** إما أن يكون هو الله عز وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وإما نبيًّا من أنبياء الله: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وإما عبدًا صالحًا من عباده على أرجح الأقوال، وهو الخضر عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، وعلى ذلك؛ فإن الصلة بين التدبر والتأويل صلة وثيقة جدًّا، فالذي يعلم التأويل هو الله وبعض الأنبياء، وبعض عباده الصالحين، والذي يُدبِّرُ الأمر هو الله، والذي يتدبر القرآن حق التدبر هو الرسول ﷺ، والمؤمنون (العباد الصالحون)؛ فهذا مناط الالتقاء بين التأويل والتدبر من ناحية الفاعل.

كما يتفقان من جهة المفعول من جهة أخرى، هي أن **المؤوَّل والمتدبَّر** هو القرآن، ولكنهما يختلفان من جهة أن المؤَوَّل في القرآن هو المتشابه، والمتدبَّر يشمل جميع القرآن، ويلتقيان أيضًا من جهة أن المؤَوَّل يكون بيانًا لعاقبة، أو تفسيرًا لأحلام ورؤى، وكل هذا يندرج في التدبر كما سبق تعريفه، ولكنهما يختلفان من جهة أن التدبر في القرآن عام للجميع كافرين ومنافقين ومؤمنين أي لجميع الخلائق، بينما التأول وقفٌ على الراسخين في العلم مثل حبر الأمة ابن عباس كما يفهم من الحديث الشريف السابق، فالتدبر على ذلك أعم من التأويل كما ترى، وبذلك يلتقي التأويل بالتدبر من وجوه، ويختلفان من وجوه أُخَر.

❖ ❖ ❖

رابعًا: تحرير مصطلح البيان لغة:

صيغة البيان مصدر من الفعل (بان يبين بيانًا)، وهو في اللغة بمعنى الوضوح والظهور، يقول ابن منظور: «البَيانُ: ما بُيِّنَ به الشيءُ من الدلالة وغيرها، وبانَ الشيءُ بَيانًا: اتَّضَح، فهو بَيِّنٌ، والجمع أَبْيِناءُ، مثل هَيِّنٍ وأَهْيِناء، وكذلك أَبانَ الشيءُ فهو مُبينٌ؛ قال الشاعر:

لو دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ضَاحِي جلدِها ... لأَبَانَ من آثارِهِنَّ حُدورُ

... وتَبَيَّنَ الشيءُ: ظَهَر، وتَبَيَّنْتُهُ أَنا، تتعدَّى هذه الثلاثةُ ولا تتعدَّى، وقالوا: بانَ الشيءُ واسْتَبانَ وتَبيَّن، وأَبانَ وبَيَّنَ بمعنى واحد...»[1]، وإلى هذا ذهب البقاعي أيضًا حيث يقول «البيان: إظهار المعنى للنفس بما يفصله عن غيره وهو غرض كل حكيم في كلامه، ويزيد عليه البرهان بأنه إظهار صحة المعنى بما يشهد به»[2].

وقد استعمل الذكر الحكيم هذا المصطلح (البيان) ثلاث مرات[3]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٨]، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ٤].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٩].

وهنا يجدر بنا ملاحظة عدة أمور:

الأول: اسم الإشارة (هذا) في آية آل عمران يعود على القرآن أي: هذا القرآن فيه

(١) لسان العرب (ب ي ن).

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٤ / ٢١٩.

(٣) وردت صيغ كثيرة من مادة (ب ي ن) لا مجال لذكرها كلها هنا، فلتراجع في المعجم المفهرس١٤١ : ١٤٥.

بيان للناس عامة، وهو هدى وموعظة للمتقين خاصة فالبيان هنا بمعنى الوضوح والانكشاف مما يعني أن القرآن لا ألغاز فيه، فمعانيه بينة وطرائقه واضحة.

الثاني: البيان في سورة الرحمن ليس ببعيد عن هذا، فمعنى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤] «أي: ألهم الله عز وجل الإنسانَ النطق الذي يستطيع به أن يُبين عن مقاصده ورغباته، ويتميز به عن سائر الحيوان»[1]، ولن يبين الإنسان عن مقاصده ورغباته إلا بكلام واضح لا ألغاز فيه عكس ما يتشدق به بعض الحداثيين الذين يغمغمون بكلام وغمغمات غير مفهومة، ومعاني كلامهم زئبقي رجراج تغطيه التعمية، ويلفه الغموض، ويسمون هذا فنًّا، ألا سحقًا لهذا الفن!

الثالث: البيان في سورة القيامة أيضًا بمعنى التوضيح أي: علينا توضيح معانيه وإظهارها، وتفصيل المجمل من أحكامه عن طريق السنة المطهرة، كما قال رب العالمين: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فالبيان في هذه الآيات الثلاث لم يخرج عن معنى الظهور والوضوح والانكشاف.

الرابع: يلاحظ أن **المُبَيَّن** في آية آل عمران هو القرآن، **والمبيَّن** في آية الرحمن هو كلام الإنسان، **والمبيَّن** في آية القيامة هو القرآن، وأن **المبيِّن** في آل عمران وسورة القيامة هو المولى عز وجل الذي أنزل القرآن بيانًا للناس، **والمبيِّن** في سورة الرحمن هو الناطقية لدى الإنسان.

ولعلك الآن عزيزي القارئ تدرك الفرق لائحًا بين التدبر والبيان، فالتدبر يكون في المعاني المكنونة في كلام الرحمن كي نصل إلى مراد الله فيها، وهذا هو صلة التدبر

(١) تفسير الصابوني ٣/ ١٤٥٦ بتصرف.

بالبيان المفهوم من آية آل عمران والقيامة، وقد أشار إلى هذا بعض العلماء يقول د/ محمود توفيق: «والتدبُّر لا يكون إلاَّ لما هو مكنون في الكلم من المعاني، ومن ثَمَّ كان المبتغَى بالتدبر هو المعنى القرآني الكريم، وهذا هو مناط البركة الرئيس»(١).

ويكون التدبر أيضًا في الدلالات المستكنة في كلام الإنسان، فعلى المتكلم أن يبين كلامه، وعلى أخيه الإنسان أن يتدبر في كلامه، ويعقله ليفهم المراد منه، كما أن بين التدبر والبيان تلازم جليٌّ من جهة أن البيان هو المعنى الواضح المنكشف، والتدبر لا يكون إلا في كلام واضح لا ألغاز فيه للوقوف على حقيقته، وهكذا كانت العلاقة وثيقة بين البيان والتدبر فهما صنوان متلازمان لا ينفكان.

❖ ❖ ❖

خامسًا: **تحرير مصطلح الاستنباط لغة**، صيغة استنباط مصدر على وزن استفعال من الفعل الماضي السداسي استنبط، ويعني في اللغة الاستخراج، يقول ابن منظور: «اسْتَنْبَطه واستنبط منه علمًا وخبرًا ومالاً: استخرجه، والاسْتِنْباطُ: الاستخراج، واستنبَطَ الفَقيهُ إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمِه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣]. قال الزجَّاج: معنى يستنبطونه في اللغة يستخرجونه، وأَصله من النَّبَط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أَوَّل ما تحفر»(٢).

لكن يلاحظ أن الألف والسين والتاء في استنبط تدلُّ على الطلب أي: أن المستنبط يتطلب ويتكلف ويبذل جهده، ويعمل عقله ليصل إلى مراده كما يحصل المستخرج للماء من قعر البئر بالصبر والتكلف والمعاناة وبذل الجهد.

---

(١) العزف على أنوار الذكر د/ محمود توفيق ١/ ١٢.

(٢) لسان العرب (ن ب ط).

ولم يرد هذا المصطلح بذاته في القرآن الكريم بل ورد الفعل المضارع (يستنبط) في الذكر الحكيم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣]؛ فهذا الفعل من الألفاظ الفرائد التي لم ترد إلا في هذا الموطن فحسب من الذكر الحكيم.

ويلاحظ أن هذه الآية وردت عقب الحديث عن قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾، كما يلاحظ أن الخطاب فيها، وفيما قبلها موجه للمنافقين الذين ينعي المولى عز وجل عليهم هنا بأنهم «إذا جاءهم خبر من الأخبار عن المؤمنين بالظفر والغنيمة أو النكبة والهزيمة أذاعوا به، وأفشوه وأظهروه، وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته، وكان في إذاعتهم له مفسدة للمسلمين، ولو ترك هؤلاءِ الكلامَ بذلك الأمر الذي بلغهم، وردوه إلى رسول الله، وإلى كبراء الصحابة، وأهل البصائر لعلمه الذين يستخرجونه منهم»[1].

فالاستنباط هنا كما هو جلي لم يتعلق بآية من آيات القرآن لم يفهمها المنافقون فهمًا صحيحًا بل هو متعلق هنا بعدم الوقوف على حقيقة الأخبار التي يتناقلها بعض الناس بدون فهم أو روية، ويفشونها، ولا يعرفون حقائقها، ولو ترك المنافقون هذا الأمر لأهله لاستنبطوه، ووضعوا الأمور في نصابها، وأدركوا حقائق الأخبار المتناقلة.

كما يلاحظ من الآية أن الذين يستنبطون حقائق الأخبار المذاعة هم: (الرسول، وأولو الأمر) والمقصود بهم هنا (أكابر الصحابة وأهل البصائر في كل زمان ومكان)، أو الذين من الممكن أن نسميهم المتدبرين.

---

(١) تفسير الصابوني ١/ ٢٧٦.

obeikandi.com

فالمتدبرون هم الذين يقفون على حقائق الأمور، ويعرفون كنه الأخبار التي قد تكون سببًا في المفسدة، وعلى ذلك فإن بين التدبر والاستنباط علاقة وثيقة جدًّا، فالمستنبط يستخرج ما خفي ودق من الأخبار والمعاني.

والمتدبر لا يتدبر إلا في كل كلام يحتاج في إدراكه إلى تأمل وتفكر وإنعام نظر، ليستخرج خفيه، ويقف على حقيقته، كما أن التدبر يُعدُّ أصلاً أصيلاً للاستنباط ؛ لأن الذي يستنبط الأمور الخفية، والمسائل الدقيقة لا بد أن يتدبر ويتأمل فيها أولاً، وعلى ذلك فالتدبر أعم، والاستنباط أخص، وأيضًا فإن التدبر يؤدي حتمًا إلى الاستنباط، ويزخر تراثنا العظيم بكثير من العلماء، والفقهاء، والقضاة، وأصحاب البصائر الذين وفَّقَهُم المولى سبحانه وتعالى واستنبطوا المسائل الخفية، وأزاحوا الركام عن القضايا الشائكة التي خفيت عن غيرهم وكانت سبب فتنة وبلبلة كثيرة في شتى صنوف العلوم والمعارف عقيدةً وتفسيرًا وحديثًا وفقهًا وبلاغةً ونحوًا، وغير ذلك، وما ذلك إلا بفضل التدبر.

أما وجه المفارقة بينهما فيتمثل في أن التدبر مطلوب من كافة الناس باختلاف مشاربهم، بخلاف الاستنباط؛ فإنه لا يكون للكافة بل يختص كما حكى القرآن بالرسول، وأولي الأمر (العلماء والولاة وأهل البصائر) فهؤلاء على كل حال طوائف خاصة، وليسوا عامة المؤمنين.

❖ ❖ ❖

سادسًا: تحرير مصطلح الفهم لغة:

صيغة فَهْم على وزن فَعْل، وهي مصدر من الفعل الماضي الثلاثي فَهِمَ، ويعني في اللغة: المعرفة والعلم والفقه، يقول ابن منظور: «الفَهْمُ: معرفتك الشيء بالقلب،

فَهِمَه فَهْمًا وفَهَمًا وفَهامةً: عَلِمَه الأخيرة عن سيبويه، وفَهِمْت الشيء: عَقَلْتُه وعرَفْته، وفَهَّمْت فلانًا وأَفْهَمْته، وتَفَهَّم الكلام: فَهِمه شيئًا بعد شيء»[1].

ولم يرد هذا المصطلح بعينه في الذكر الحكيم بل ورد الفعل الماضي الرباعي المضعف العين (فَهَّم)[2] مرة واحدة فحسب في قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقد ورد التفهيم هنا في سياق بيان الحادثة المشهورة بين داود وسليمان عليهما السلام التي ذكرتها الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ۖ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨]، فحكم داود عليه السلام بحكم لم يكن هو عين الصواب، وامتن المولى عز وجل على سليمان فعلمه وعرفه، وألهمه عين الصواب، ومن ثم نُسب التفهيم هنا للمولى عز وجل بنون العظمة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾.

ونستطيع أن نستنبط من ذلك أمرًا مهمًّا أن **المُفَهِّمَ** هو الله عز وجل، وأن الذي وقع عليه التفهيم شيئان[3]: سليمان عليه السلام، وقضية الحرث المتنازع فيها، وعليه فالفهم لا يكون إلا في الأمور العويصة، والقضايا الشائكة والمسائل الدقيقة المتنازع فيها، والتي يذهب فيها الحكمان مذاهب شتى ما بين الخطأ والصواب وعين الصواب،

(١) لسان العرب مادة (ف هـ م).

(٢) هذه الكلمة من الكلمات الفرائد -مادةً وصيغةً- في الذكر الحكيم، وهي مثل مصطلح (التفسير)، ومصطلح (الاستنباط).

(٣) الفعل «فَهَّمَ» يتعدى لمفعولين الأول القضية والثاني سليمان، وتقدير الكلام: «فَهَّمَ المولى عز وجل القضيةَ سليمانَ».

ومن رزقه الله فهمًا وعلمًا ومعرفةً وألمعيةً أكثر يكون أقدر على الإتيان بالحكم الصائب بعينه.

كما يلاحظ أن الفهم هنا كان في أمر دنيوي مما يتصل بالزرع والحرث.

وهنا تبدو العلاقة واضحة جدًّا بين التدبر والفهم؛ لأن المتدبر في الأمور يجب أن تتوافر فيه هذه الصفات من الفهم والمعرفة التي يلهمها رب العالمين لبعض عباده الصالحين ولو نسبيًّا.

وعلى ذلك فالتدبر أعم والفهم أخص؛ لأن التدبر يكون في كل المعاني المستكنة في كتاب الله، والفهم يختص بالقضايا الشائكة والمسائل الخبيئة الدفينة، ولذا كان العقل والعلم والمعرفة اللاتي هي مناط الفهم من الأساسيات التي يجب أن تتوافر في المتدبر، وأيضًا فالفهم يكون نتيجة للتدبر، وهل نتدبر شيئًا إلا بعد فهمه ومعرفته والوقوف على حقيقته اللغوية والمراد منه؟

وبعد؛ فقد تبين لنا من عرضنا لهذه المصطلحات، والصيغ المختلفة أن القرآن الكريم يعبر عن المعاني السابقة بصيغ معينة غاية في الدقة، فمن يتأمل القرآن قراءةً وسماعًا وكتابةً يكون **متدبرًا**، ومن يقف على متشابه القرآن يكون **متأولاً**، ومن يكشف عن المعاني المرادة من الألفاظ يكون **مُفَسِّرًا**، ومن يتعرف على حقائق الأخبار، ويميز بينها يكون مستنبطًا، ومن يأتي بكلام واضح يكون **مبينًا**، ومن يدرك الصواب في القضايا الشائكة يكون فاهمًا، وغني عن البيان أن التدبر أعم من هذه المصطلحات، وأنها كلها داخلة تحت عباءته، فيا لروعة هذا الذكر الحكيم الذي يعبر بصياغات هي مناط إعجازه، بما لا يقدر الإنس والجن أن يأتوا بها.

❖ ❖ ❖

هذا، وكنت أود أن تتسع محاور هذا الملتقى لتشمل علاقة التدبر بالتَّفَكُّر والتَّذَكُّر والنظر والاعتبار؛ لأنها من المصطلحات القرآنية المهمة، والتي لها وثيق الصلة بمصطلح التدبر، وزيادة في الفائدة أقول:

صيغة (تَفَكُّر) على وزن تفعُّل، وهي مصدر الفعل الماضي الخماسي (تَفَكَّرَ)، والمراد منه لغة التأمل وإعمال العقل في الشيء، يقول ابن منظور: «الفَكْرُ والفِكْرُ: إعمال الخاطر في الشيء ؛ قال سيبويه: ولا يُجمع الفِكْرُ ولا العِلْمُ ولا النظرُ، قال: وقد حكى ابن دريد في جمعه أَفكارًا، والفِكْرة: كالفِكْر، وقد فَكَر في الشيء، وأَفْكَرَ فيه وتَفَكَّرَ بمعنًى، الجوهري: التَّفَكُّر: التأمل»[1]، ومن العجيب أن الذكر الحكيم لم يستخدم مصطلح التأمل مطلقًا وهذه خصوصيات في استعمالات الذكر الحكيم لبعض الصيغ والألفاظ عرضتُ لها في بحثٍ بعنوان: «من أسرار الإعجاز القرآني في ضوء آيات النحل والنمل».

وصيغة (تَذَكُّر) على وزن تفعُّل أيضًا، وهي مصدر الفعل الماضي الخماسي(تَذَكَّرَ) والمراد منه لغةً: استحضار المنسي أو الغائب عن الذهن، يقول ابن منظور: «وذَكَرْتُ الشيء بعد النسيان وذَكْرتُه بلساني وبقلبي وتَذَكَّرْتُه وأَذْكَرْتُه غيري، وذَكَّرْتُه بمعنًى»[2].

والنظر مصدر من الفعل الماضي الثلاثي (نَظَرَ) ومعناه لغة: التأمل بحاسة البصر يقول ابن منظور: «النَّظَر: حِسُّ العين، نَظَره يَنْظُره نَظَرًا، ومَنْظَرًا ومَنْظَرة ونَظَر إِليه، الجوهري: النَّظَر تأَمُّل الشيء بالعين»[3].

ومصطلح الاعتبار مصدر من الفعل الماضي الخماسي (اعْتَبَرَ) وهو في اللغة: التدبر

(١) لسان العرب مادة (ف ك ر).
(٢) لسان العرب مادة (ذ ك ر).
(٣) لسان العرب مادة (ن ظ ر).

والنظر بمهالك الأقوام، وفي ذلك يقول ابن منظور: «والعِبْرة: العجب، واعْتَبَر منه: تعجَّب، وفي التنزيل: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]؛ أَي تدبَّروا وانظُروا فيما نزل بقُرَيْظةَ والنضير، فقايِسوا فِعالَهم واتَّعِظُوا بالعذاب الذي نزل بهم» [١].

هذا؛ وقد حصرت تلك المصطلحات في القرآن الكريم فوجدتها استعملت فيه على النحو الآتي:

لم يرد مصطلح التفكر في القرآن العظيم بل ورد الفعل المضارع (تَتَفَكَّر)، (يتفكر) من الماضي الخماسي تَفَكَّر (١٧) مرة [٢] وقد ورد الفعل الماضي الرباعي المضعف (فَكَّرَ) مرة واحدة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، ولم ترد من هذه المادة أي صيغة فعلية أخرى، كما لم يرد منها أي صيغة اسمية البتة.

والتفكير في آية المدثر كما هو معلوم ورد في مقام ذم الوليد بن المغيرة.

أما سياقات التعبير في بقية الآيات فقد وردت كلها في مقام مدح المتفكرين، وكان مناط التفكر أشياء عديدة: فعلى سبيل المثال كان التفكر واقعًا على آيات الكتاب الحكيم في آية البقرة (٩٩)، وعلى أمر الدنيا والآخرة في آية البقرة (٢١٩)، وعلى خلق السموات والأرض في آية آل عمران (١٩١).

وفي أمر النحل في آية النحل (٦٩) [٣] وفي المودة والرحمة التي غرسها المولى عز

(١) لسان العرب مادة (ع ب ر).

(٢) المعجم المفهرس ٦٦٧.

(٣) يقول البيضاوي: «في آية النحل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩] من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعًا أنه لا بد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك، ويحملها عليه»، وأقول أيضًا: لم يصل العلماء قديمًا وحديثًا في معرفة شأن النحل وكيفية الإفادة من عسله ومنتجاته إلا بالتدبر في حكمة خلقه.

وجل بين الأزواج في آية الروم (٢١)، فمن تفكر في آيات الذكر الحكيم، وفي خلق السموات والأرض وخلق النحل وغير ذلك يجد فيها كلها دلائل واضحة على وجود الخالق سبحانه وتعالى، ومن هنا تبدو العلاقة واضحة جدًّا بين التدبر والتفكر.

وقد وفق العسكري توفيقًا واضحًا حين ذكر الصلة بين التدبر والتفكر فقال: «فُرِّقَ بينهما بأن التدبر: تصرف القلب بالنظر في عواقب الأمور، والتفكر: تصرف القلب بالنظر في الدلائل»[١].

أما مصطلح التذكر فلم يرد في القرآن الكريم مطلقًا، ولكن ورد المضارع (يتذكر) وغير ذلك من الصيغ المستمدة من مادة (ذ ك ر) كثيرًا[٢].

وعلاقة التذكر بالتدبر واضحة فإن تَذَكُّرَ الشيء يقتضي أن صاحبه كان عالمًا به قبل أن ينساه، ثم تذكره بقراءة أو اكتساب علم أو مذاكرة أو بأي سبب من الأسباب، وفي ذلك يقول د/ محمود توفيق: «في قوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] إشارة إلى أنَّ التَّذكُّرَ منزلةٌ مُتَرَتِّبَةٌ على حسن التدبر، فمن قام بشيءٍ من حق التَّدبُّر كان له من التذكر نصيب على قدر لبِّه»[٣].

وكذلك الحال في مصطلح النظر فهو لم يرد مطلقًا في القرآن الكريم بل ورد الماضي (نَظَرَ) ومضارعه وأمره، كما ورد المضارع (تُنظِرونَ) من الماضي الرباعي (أَنْظَرَ) وكذلك الأمر من هذا الماضي، كما ورد المضارع والأمر من الماضي الخماسي (انْتَظَرَ)، وورد اسم الفاعل من الثلاثي (نظر)، واسم المرة (نظرة)، وورد اسم الفاعل، واسم

(١) الفروق اللغوية ١/ ١٢٠.

(٢) المعجم المفهرس ٢٧٠ : ٢٧٥.

(٣) العزف على أنوار الذكر ١/ ١٠.

المفعول من الرباعي (أَنْظَرَ)، واسم الفاعل من الخماسي (انْتَظَرَ).

وهكذا تعددت الصيغ من هذه المادة والوقت لا يسعنا لبيان دلالة كل صيغة من واقع سياقها القرآني.

والمهم أن مناط النظر في كثير من هذه الآيات كان متنوعًا ما بين النظر في ملكوت السموات والأرض، والنظر في عاقبة وهلاك الذين سبقوا كفار قريش، والنظر إلى السماء كيف بنيت وزينت، وغير ذلك، ولا يخفى أن النظر بمعنى البصر مطوي في دلالة هذه الصيغ.

وعلاقة النظر بالتدبر علاقة وثيقة؛ لأن المتدبِّر ينظر للمُتَدَبَّرِ بأناة وتأمل حتى يصل إلى مراده من التدبر.

وكذلك الحال في مصطلح الاعتبار فلم يرد مطلقًا في القرآن الكريم بل ورد الأمر من الماضي (اعتبر) مرة واحدة فحسب في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وورد الفعل (تَعْبُرُونَ) مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣]، وجمع المذكر عابرين مرة واحدة في قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤٣]، كما ورد المصدر (عِبْرَة) ٦ مرات[1].

والعلاقة بين التدبر والاعتبار واضحة أيضًا ؛ لأن التدبر في عواقب الأمور يقود إلى الاعتبار والاتعاظ بيسر وسهولة، أو قُلْ: إن العظة والاعتبار من ثمار التدبر.

وبعدُ؛ فلو تدبرنا في هذه المصطلحات والصيغ السابقة كلها نستطيع أن نجزم أن القرآن الكريم في اختيار صيغه المختلفة له أنماط وطرائق يسير عليها لا يستطيع

(١) المعجم المفهرس ٤٤٥.

بشر -كائنًا ما كان- أن يصبو إليها أو يحاكيها، فهو يأتي من المادة الواحدة بالأسماء، والأفعال على اختلاف الصيغ، وقد يأتي من المادة الواحدة بالأسماء فقط، أو بالأفعال فقط، والعثور على ذلك كله إنما هو نتيجة واضحة للتدبر في ألفاظه وصيغه.

ولقد اتضح من تحرير هذه المصطلحات القرآنية من خلال استعمالات الذكر الحكيم مدى الصلة الوثيقة بينها، كما اتضح أيضًا لكل من له لب أن القرآن يسمي الأشياء بمسميات دقيقة عكس البشر فقد يتسامحون ويطلقون هذا على ذاك، وهذا ما يجب التنبه له مما يدل على أننا لا بد أن نسمي الأشياء بمسمياتها القرآنية، وهو الاتجاه الأعز والأكرم والأفضل.

فالتأمل في الكون عبر عنه الذكر الحكيم بالنظر والعبرة والاستبصار، والتأمل في القرآن عبر عنه بالتدبر، ومن هنا يبدو لنا الفرق الواضح بين كلام الرحمن وكلام الإنسان ففضل كلام الرحمن على كلام الإنسان كفضل الله على سائر خلقه، وكل ذلك ظواهر قرآنية تستحق البحث والدرس بأناة أكثر وتدبر أعمق لاستخراج الفروق الدقيقة، وإدراك العلاقات القائمة بينها، لأن ما ذكرناه كان بنظرة عجلى في هذا الجانب الغزير.

وفي خاتمة المطاف يجب أن نقول: إن التدبر كما يكون في الذكر الحكيم مسموعًا ومقروءًا ومكتوبًا، فبالقياس على ذلك فإن التدبر يجب أن يكون أيضًا سمة عامة في مختلف العلوم الإسلامية مقروءةً ومسموعةً ومكتوبةً، ولقد قام أسلافنا بالوفاء بحق التدبر في هذين الجانبين الكريمين فتركوا لنا تراثًا تليدًا خالدًا في شتى العلوم والمعارف، ولا نبالغ إذا قلنا أيضًا: إن التدبر عند الأمم الأخرى كان وسيلة أساسية وعظيمة من وسائل اكتساب المعرفة البشرية، ولولا التدبر والتفكر والنظر والاعتبار

ما وصل العقل البشري إلى ما وصل إليه من منجزات وثقافات، وحضارات متنوعة ما بين حضارات مادية تُغَلِّبُ الجانب المادي على الروحي، وحضارات روحية تغلب الجانب الروحي على الجانب المادي، وكل من هاتين الحضارتين تقومان على ساق واحدة عرجاء لم تُخَلِّفْ أثرًا قويًّا في تاريخ البشرية إلى أن جاء هذا الدين الحنيف على يد سيد البشر أجمعين، فكانت بعثته ﷺ إيذانًا بتصحيح الأوضاع المعوجة، والمعتقدات الفاسدة بفضل القيم التي ارتكز عليها هذا الدين العظيم، والتي هي صالحة لأن تطبق على البشرية في كل زمان ومكان.

وكان عمود وعماد هذا الدين العظيم ركنين أساسيين القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ولقد قامت حول هذين الركنين العظيمين دراسات وأبحاث كثيرة تفوق الحصر لم يحدث ذلك في تاريخ أي أمة من الأمم، وهذا الإنتاج الضخم والغزير هو انعكاس واضح وظاهر للتدبر في هذين الركنين العظيمين.

ولن تستطيعَ أمة الإسلام أن تنهض من كبوتها العابرة إلا بالعودة من جديد للتدبر والتأمل في هذين الركنين العظيمين حتى تستعيدَ سالف المجد والحضارة والفكر والثقافة التي أنتجها أسلافنا القدماء حينما أعملوا عقولهم، وشحذوا أفكارهم، وانكبوا على كتاب الله وسنة نبيه، واستنبطوا منهما هذا التراث العظيم المتنوع في شتى العلوم والمعارف الإنسانية ولم يترك علماؤنا الأوائل باب خير للإنسانية إلا ولجوه، فقد كتب علماء المسلمين في كل المعارف والعلوم دون استثناء فألفوا في الطب والرياضة والصيدلة والكيمياء والفلك وغير ذلك من العلوم العملية التجريبية، كما ألفوا في العلوم الإنسانية بصورة ليس لها نظير عند الأمم الأخرى التي أُنزل عليها كتاب سماوي، فالتوراة والإنجيل لم تقم حولهما دراسات ومعارف وعلوم كمًّا وكيفًا

كما قامت حول القرآن من العلوم والمعارف التي استنبطت منه.

وكل هذا كان تلبية من علماء المسلمين، واستجابة واعية، وانصياعًا واضحًا لما أمرهم به رب العالمين من التدبر فتدبروا، ومن التفكر فتفكروا، ومن النظر فاستبصروا.

والذكر الحكيم كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه، ولا يخلق على كثرة الرد.

فلو عادت جموع الأمة إليه من جديد شريطة أن تكون العودة بتدبر وتأمل وتمعن لعادت إلينا الريادة والسيادة والقيادة، والقرآن الكريم نفسه فيه من الآيات التي تحث على التفكر في الكون والنظر في مخلوقات الله والتدبر في آياته العظيمة، واستخلاص العظات والعبر منها ما لا يوجد في كتاب سماوي آخر.

ولذا لا نبالغ إذا قلنا: إن الإسلام هو دين العلم والعقل والتدبر والتأمل والتفكر، وليس هذا رطانة جوفاء دون دليل، بل الصيغ والمصطلحات التي أحصيناها، وحررناها، وأَصَّلْنَا معانيها من الذكر الحكيم فيما سلف، وأظهرنا الفروق الدقيقة بينها لأكبرُ دليل على ذلك.

فليس هناك دليلٌ أوضح مما ذكرناه على أنَّ كُلًّا من التدبر والتفكر والنظر والاعتبار وسائر هذه المصطلحات هي ركن ركين، وأساس عظيم من أركان وأسس الإسلام المهمة التي يجب أن تكون في وعي وقلب وعقل كل مسلم يحب هذا الدين، ويحرص على تقدم أمته في سلم الحضارة الإنسانية، وأن تحتل هذه الأمة من جديد المكانة اللائقة بها، والتي قال عنها رب العالمين سبحانه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهذه الخيرية ليست من فراغ بل لأن لهذه الأمة مقومات ودعامات قامت عليها حضارتها الإسلامية العظيمة، فهذا الجانب الذي لمسناه هو جانب مهم ورشيد مع الجوانب الأخرى للتدبر وأثره وقيمته إسلاميًّا وإنسانيًّا، ومن ثم يلوح لي هنا أن التدبر وإن كان قاصرًا في الذكر الحكيم على القرآن فحسب فإنه على سبيل المسامحة يجوز أن نطلقه على التفكر في الكون والنفس الإنسانية بوجه عام وبذلك يتسع مفهوم التدبر فيندرج فيه كل هذه المصطلحات ويكون التدبر هو الأعم منها جميعها، وأنه كما كان التدبر في القرآن نصًّا، يجب أن يكون في خلق الإنسان، وفي الملكوت كله بالقياس عليه.

ومن ثم يبدو لي أن التدبر يتنوع إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تدبر بيانيٌّ مقروءًا ومسموعًا ومكتوبًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقد قام علماؤنا في القديم بهذا الواجب حق القيام فتركوا لنا هذا الإنتاج الفقهي والعلمي والأدبي الضخم والغزير المستمد من الذكر الحكيم، فيا ليت أسلافهم يواصلون المسيرة بدأب وأناة، ويبنون من ماضيهم التليد لحاضرهم المجيد، ومستقبلهم الواعد إن شاء الله تعالى.

وهذه صورة موجزة من صور التدبر القرآني لصاحب هذه السطور ففي بحث لي بعنوان: «من الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية» أسوق هنا تحليلاً لكلمة فريدة وحيدة وردت مرة واحدة في الذكر الحكيم، وهي الفريدة (**حَصْحَصَ**) التي وردت في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٥١].

وقد ذكر اللغـويون لهذه الفريدة معاني عديدة، يقول السمين الحلبي: «قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر، وتبلج وذلك بانكشاف ما يغمُرُه، وأصله من قولهم: رجـل أحـص، وامرأة حصاء، وهو مَن ذَهَبَ شعره فانكشف ما تحته»(١).

وفي المصباح المنير: «حصحص الحق: وضح واستبان»(٢)، ولم يخرج حديث المفسرين حول هذه اللفظة عن تلك المعاني، يقول العلامة أبو السعـود: «﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ثبـت واستقر، أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل، وقيل: هو مأخوذ من الحصةِ وهي القطعةُ من الجملة أي تبينت حصةُ الحق من حصة الباطل كما تتبين حصصُ الأراضي وغيرها، وقيل: بَانَ وظهر من حـص شعره إذا استأصلـه»(٣).

ويلاحظ أن هذه المعاني التي ذكرها اللغويون والمفسرون لهذه الفريدة كلها متقاربة.

إذن لماذا لم يُعَبَّرْ بواحدة منها وآثر تلك الفريدة؟ لابد أنها تشتمل على خصائص لا توجد فيما يقاربها منها:

١- أن تلك الفريدة تضم في طياتها تلك المعاني كلها، وجميعها مقبولة لا يرفضها المعني العام لسياق الكلام، ولا توجد لفظة أخرى تستطيع أن تحتوي على تلك الدلالات كلها مع فصاحتها وإيجازها.

٢- في هذه الفريدة قوة وجزالة ومتانة تتناغى بها مع ألفاظ الآية الجزلة القوية

(١) عمدة الحفاظ ١/ ٤٨٣، ومفردات الراغب ١١٩، ولسان العرب (حصحص).

(٢) المصباح المنير ٥٣، ومختار الصحاح ٥٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٨٤، وانظر تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٨، وزاد المسير ٤/ ٢٣٨، ومفاتيح الغيب ١٧/ ٧٦، وتفسير الألوسي ٨/ ٢٣٧، والتحرير والتنوير ١٢/ ٢٩١.

فضلاً عن أن مجيئها على تلك الصيغةِ من تكرار الحاء والصاد يفيد المبالغةَ في شدة وضوح الحق، وظهوره بعد خفائه وكتمانه ردحًا من الزمان، فتلك الصيغة تدل بوضوح لا لبس فيه ولا تأول على استبانة الحق وانبلاجه وسطوعه بعد غمره، وتغطيته من قبل العزيز وامرأته، وكل من شاهد هذه الواقعةَ، وعلم وتأكد من براءة يوسف u، ولن تنهض لفظةٌ أخرى من الألفاظ التي تقاربها في المعنى بمثل ما نهضت به هذه الفريدة المتفردةُ صيغةً ومادةً في الذكر الحكيم.

٣- تشير الفريدةُ إلى عودة امرأة العزيز إلى صوابها، وانقلابها من امرأة والهة مصممة على الفاحشة علانيةً إلى امرأة مقرةٍ بجرمها معترفةٍ بخطئها دون خوف أو تهديد لها، وهذا أمر فريد؛ إذ لم يُعهد في عالم المرأة أن تعترف واحدة منهن صراحة أمام جمعٍ غفير، وحشدٍ كبير أنها راودت رجلاً عن نفسه، ناهيك عن أنها ليست أيَّ امرأةٍ بل هي امرأةُ عزيز مصر صاحبةُ الجاه والقوة والصولجان، فهذا موقف غريب عجيب غايةٌ في التفرد إذ يصعب بل يستحيل أن تجد امرأة على هذا الوصف في تاريخ الإنسانية جمعاء ولو وضعوا السيف على جيدها أن تعترف بما اعترفت به امرأة العزيز.

وفي هذا الاعتراف شجاعة منقطعةُ النظير، وأوبةُ للحق لا مثيل لها قديمًا وحديثًا، ومردُّ هذا كلِّه هو إيمانُها بربها كما يفهم من قولها الذي حكاه القرآن الكريم عنها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]، وقولها أيضًا: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] فلهذه المرأة موقفان في غاية الغرابة: موقفٌ مزرٍ معيبٌ دلت عليه الفريدة: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ وموقفٌ حرٌّ كريم دلت عليه الفريدة: ﴿حَصْحَصَ﴾.

٤- تشير تلك الفريدة إلى تفرد هذا الموضع في القرآن كله ؛ إذ لم يرد الحديث عن هذا الموقف في أي سياق، أو موضوع آخر من الذكر الحكيم.

وهنا أمر ينبغي أن أؤكد عليه وهو أن دلالة الفرائد على تفرد موضعها بنصه وفصه في القرآن لا ينبغي أن يُعترض عليه بأن هناك مواطنَ في القرآن كثيرة ذكرت مرة واحدة بنصها وفصها ولم ترد فيها فرائد ؛ لأن هذا السر من ضمن أسرار الفرائد وليس سرا وحيدا فيها والله أعلم.

٥- هذه الفريدة لوجازتها ودقتها في الدلالة على سطوع الحق، وظهوره بعد كتمانه جرت مجرى المثل في دقته وفصاحته وعذوبته كما أشار كثير من العلماء.

وباختصار فقد توافرت في تلك الفريدةِ شتى صنوفِ الفصاحة، ومختلفِ أنواع الجمال، ولا يمكنُ للفظةٍ أخرى أن تحل محلها في هذا المقام فهي أكثر وفاء بالمعنى المراد، وأحلى على اللسان، وألذَّ في الوقع والآذان، والله أعلم.

النوع الثاني: تدبر كياني إنساني مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، وقد خطت الأمم الغربية خطوات كبيرة وعظيمة في معرفة كثير من النواحي البيولوجية والطبية والنفسية عن الجسد الإنساني، وكل يوم تترى الابتكارات والاكتشافات العلمية والطبية التي تتصل بحياة الإنسان على هذا الكوكب، وما كان أجدر بالمسلمين أن يكونوا أصحاب هذا التقدم، وقد دعاهم ربهم للنظر في ذلك في آيات عديدة.

النوع الثالث: تدبر كوني ملكوتي آفاقي مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وهذا ما قد ينقص الأمة الإسلامية في هذا العصر عكس الأمم الغربية التي أنست التدبر في السموات التي تظلهم،

والأرض التي تقلهم فاستخرجوا بعض مكنوناتها وعجائبها، ووصلوا إلى بعض كواكبها، وكل هذا من آثار التدبر والتأمل، وكأنهم حين طبقوا التدبر في هذا الجانب صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ودلائل التوحيد الخالص تنحصر في هذين النوعين الأخيرين، قال الفخر الرازي: «دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس، ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]»[1].

❖ ❖ ❖

كما يلوح لي أن الأعمدة التي يرتكز عليها التدبر، وبدونها لا يكون له أثرٌ تتمحور في أعمدة داخلية يهبها المولى سبحانه لبعض عباده من الذكاء، وسرعة البديهة، والفهم وحسن التبصر، وأعمدة خارجية يجب على كل متدبر في القرآن أن تكون نصب عينه تتمثل في فهم علوم اللغة، ومعرفة أساليب العرب، وطرائق تراكيبهم، وغير ذلك كما أسلفنا في آلات المفسِّر.

فمن تدبر غير معتمدٍ على تلك الأسس لم ولن يصل به عقله إلى مراده؛ فكم من عقل معجب بنفسه وفكره ضل الطريق كبعض الفلاسفة الذين أعلوا من قدر العقل على النقل، وقديمًا سقط المعتزلة في هذا البئر فخالفوا نصوصًا شرعية واضحة؛ لأنها خالفت العقل من وجهة نظرهم، ومن ثم يجب أن تكون هناك ضوابط عقلية وشرعية ينطلق منها المتدبر في كتاب الله وسنة نبيه، وليس هذا فحسب بل يجب أن

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٥/ ١١.

تكون هناك أسس يسير عليها كل متدبر في أي علم من العلوم.

وهذا يوصلنا إلى قضية خطيرة ومهمة، وهي وجوب التخصص لدى العلماء الذين يتدبرون في شتى المعارف، فالطبيب لا يتحدث في مهنة المهندس بدون علم، وبخاصة في المسائل المعقدة المتشابكة، والفلكي لا يتحدث في علوم الدين بدون علم، وهكذا دواليك، نعم ليس الدين حكرًا على بعض دون بعض، ولكن لا بد من وجود الأدوات التي يدخل بها العالم أو المفسر، أو الفقيه إلى رحاب القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد تنبه علماؤنا، وأسلافنا القدماء رحمهم الله إلى ذلك فوضعوا شروطًا للمفسر وشروطًا للمفتي الذي يجتهد في مسائل الدين.

وليس هذا أمرًا غريبًا أو عجيبًا فكل شيء في الحياة يجب أن يكون له ضوابط فالكون يسير على أسس وضوابط محكمة، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، بل حتى اللعب له ضوابط وضعها له الواضعون، ففي الرياضات المختلفة ضوابط لو تخطاها اللاعبون، ولم ينفذوا تعليمات اللعبة وشروطها لن يقبل أحدٌ منهم تلك الخروق فما بالك بالعلم والدين واللغة، وهي من أعظم الأشياء لدى الأمم، فيجب أن تكون هناك قواعد وأسس ومبادئ ينطلق منها المتدبرون في علوم الدين بمختلف طوائفهم وتخصصاتهم.

والقضية الأخرى في هذا المقام أن المتدبرين في كل زمان ومكان هم المبتكرون والمخترعون، والذين يتوصلون إلى النظريات التي تخدم البشرية في العلوم البحتة التطبيقية والنظرية، فنيوتن لو لم يتدبر في نفسه ويتساءل لماذا لَمْ تسقط التفاحة إلى أعلى لما توصل لقانون الجاذبية، وهكذا الحال في كل المخترعات الحديثة والقديمة، وهذه كلها أمور بدهية لا بد أن تلتقي عليها الإنسانية لنخرج من هذا كله بنظرية عامة

تتمحور في:

١- التدبر هبة إلهية للبشرية جمعاء؛ لأنه من لوازم العقل الذي خلقه المولى سبحانه وتعالى في كل إنسان عاقل مكلف.

٢- التدبر أساس في اكتساب العلوم والمعارف في كل أمة مذ بدء الخليقة حتى قيام الساعة.

٣- التدبر يحمي من الوقوع في الزلل والتردي في وهدة الخطأ؛ لأنه يعتمد على أسسٍ وقواعد وأصول وضوابط وشروط في كل علم وفن ومعرفة، ولا ينطلق من فراغٍ.

٤- المتدبرون في الذكر الحكيم خاصة لا يكتمل تدبرهم إلا إذا صحبوا هذه الأسس والقواعد المختلفة.

٥- التدبر يحمي الأمة الإسلامية جمعاء من التردي والسقوط، وهو الذي يحمي شباب المسلمين من براثن الوقوع في الأفكار الضالة المضللة التي لا تتكئ على أسس لغوية وشرعية.

٦- التدبر هو الذي يفتح مغاليق العلوم المختلفة، ويكشف عن أسرار الكون بل وكل الكائنات الصامتة والناطقة.

٧- التدبر العميق هو الذي يحل الإشكالات بين كثير من المذاهب المختلفة.

ومن خلال تطبيق علمائنا الأوائل لشروط هذا التدبر توصلوا لكثير من المعطيات العلمية، وحققوا كثيرًا من المنجزات الحضارية، وصححوا كثيرًا من الأفكار المضللة.

ويجدر بنا بحكم التخصص أن نشير إلى أن علماء البلاغة قد عرفوا التدبر حق

obeikandl.com

المعرفة، وأشاروا إلى أنه آلة من آلات التحليل البلاغي، والكشف عن الأسرار الجمالية في فنون القول المختلفة، يقول الإمام عبد القاهر: «قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ أي لمن كان أعْمَلَ قلبَه فيما خُلِقَ القلبُ له منَ التدبُّرِ والتفكُّر والنظر فيما ينبغي أن ينظرَ فيه»(١).

ويقول أيضًا: «واعْلَمْ أن ها هُنا دقائقَ لو أنَّ الكنديَّ استقرأ وتصفَّحَ وتتبَّعَ مواقعَ (إنَّ) ثم أَلْطَفَ النظرَ وأكثر التدبُّرَ لَعَلِمَ عِلْمَ ضرورةٍ أنْ ليس سواءً دخولُها وأن لا تَدْخلَ»(٢).

ويقول أيضًا منعيًا على مَن يهمل التدبر: «ولولا أنَّ الشيطان قد استحوذ على كثيرٍ من الناس في هذا وأنهم بترك النظر وإهمالِ التدبُّرِ وضعفِ النِّية وقِصَر الهمَّة وقد طرَّقوا له حتى جَعَل يلقي في نفوسِهم كلَّ مُحال وكلَّ باطِل»(٣).

وفي موطن آخر يدعو العلماء إلى التدبر في كتابه دلائل الإعجاز فيقول: «ما أظنُّ بكَ أيها القارئ لكتابِنا إن كنتَ وفَّيته حقَّه من النظر، **وتدبَّرتَه حقَّ التدبر** إلَّا أنكَ قد علمتَ علمًا أبى أن يكون للشكِّ فيه نصيبٌ وللتوقُّفِ نحوكَ مذهبٌ أنْ ليس النظمُ شيئًا إلَّا توخِّي معاني النحو وأحكامِه ووجوهِه وفروقه فيما بَيْنَ معاني الكلم»(٤).

ولم يقتصر الأمر على معرفة التدبر، وقيمته وفضله عند البلاغيين، ومن قبلهم المفسرون كما ذكرنا قبل بل كان في صلب اهتمام نقاد الأدب ورواته حيث أعملوا

(١) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تحقيق محمود شاكر ٣٠٤.
(٢) المرجع السابق ٣١٥.
(٣) المرجع السابق ٤٥٠.
(٤) المرجع السابق ٤٣٠.

التدبر في رفض الروايات وقبولها يقول البكري: «أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي، وخريم له صحبة وهو ممّن اعتزل الجمل وصفّين وما بعدهما من الأحداث، وهو منسوب إلى جدِّه الأعلى ؛ لأنه خريم بن الأخرم بن شدَّاد بن عمرو بن فاتك وكان أيمن فارسًا شريفًا، وكان يتشيَّع، وكان به وضحٌ، وقوله فيها:

أَتَانِي بِها يَحْيَى وَقَدْ نِمْتُ نَوْمَةً وَقَدْ غَابتِ الشِّعْرَى وَقَدْ جَنَحَ النِّسْرُ

روى غيره: (وقد غابت الشعرى وقد طلع النسر)، وهو الصحيح لأن الشعرى: العبور إذا كانت في أفق المغرب كان النسر الواقع طالعًا من أفق المشرق على نحو سبع درجات وكان النسر الطائر لم يطلع، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع حينئذ غير مكبَّد فكيف أن يكون جانحًا، وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالعًا على نحو سبع درجات أيضًا، **فرواية أبي علي لا تصحُّ عند التدبر البتَّة...**»[1].

ولم يقتصر الأمر على البلاغيين والمفسرين، ورواة الأدب ونقاده بل جرى التدبر على ألسنة الفقهاء يقول أحدهم: «الْوَقْفَ لا يُقْسَمُ أَيْ قِسْمَةً مُسْتَدَامَةً، فَقَدْ ظَهَرَ لَكَ أَنَّ هَذَا كلام نَاشِئٌ عَنْ عَدَمِ التَّدَبُّرِ، لِمُخَالَفَتِهِ لِلإِجْمَاعِ فَتَدَبَّرْ»[2].

كما جرى التدبر على ألسنة الشعراء، وعدوه نعمة أنعم بها الله على عباده يقول شاعر الجزيرة العربية محمد حسن فقي في قصيدته الرائعة أطوار:

وأَسْدُرُ في غَيِّ الحياة وأَرْعَوي ... فَأَبْكِي.. وتَطْوِيني رُؤاهـا وتَنْشُرُ!

وإنِّي عَلَى مَـا كَانَ مِنِّي لَنَـادِمٌ ... فَهَلْ نَدمِي يُجْدِي ويُجْدِي التَّدَبُّرُ؟!

(١) سمط اللآلئ للبكري ١/ ٧٤.

(٢) رد المحتار ١٧/ ٢١٤.

فقال.. بَلى. إنَّ التَّدَبُّرَ نِعْمَةٌ عَلَيْكَ. وقد يَتْلُو.. فَيَهْدِي التَبصُّرُ!»[1].

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل العجيب الغريب أن التدبر كان مضرب الأمثال نظرًا لأهميته القصوى يقول العسكري: «ومن أمثالهم في الأمر قولهم: (الأمر يبدو لك في التدبر)»[2].

وفي النهاية لا يسعني بعد هذه المداخلة الطويلة إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للأساتذة الفضلاء، والشيوخ الأجلاء القائمين على أمر هذا الملتقى الفكري الرائد والناجح بإذن الله عز وجل، وأحييهم وأشدُّدُ على أيديهم داعيًا لهم بدوام التوفيق والسداد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكتبه

د. عبدالله عبدالغني سرحان

أستاذ البلاغة والنقد المشارك بكلية اللغة العربية

جامعة الملك خالد بأبها

(١) ديوان الشعر العربي على مر العصور ٦٣ / ٢٧٤.

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٧٩.

opelkandl.com

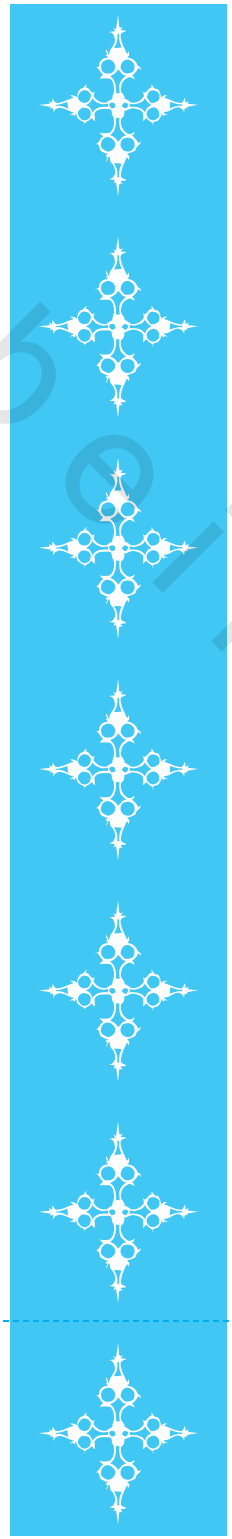

التدبر مفتاح العلم وباب العمل

obeikandl.com

أ.د. سعود بن عبدالله الفنيسان

التدبر مفتاح العلم وباب العمل

جاءت آيات كثيرة تدعو إلى تدبر القرآن وتأمله كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

والتدبر هو التأمل والتفكر الممزوج بالعمل عند النظر في آيات الكون المنظورة وآيات الكتاب المسطورة للاعتبار؛ فآيات الكون المنظور هي ضمن آيات الكتاب المسطور، لنتأمل سويًّا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. صحَّ عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «أثيروا» وفي رواية: «ثوروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين»، وقال كما في المسند (٥/ ٢١٧): «إن للقرآن منارًا كمنار الطريق فما عرفتم فيه فتمسكوا به، وما شبه عليكم فكلوه إلى

عالمه»؛ فعلى المسلم أن يتمسك بالمعلوم له، وما كان في الحلال والحرام مما يحتاج إلى اجتهاد فيوكل إلى أهله وهم العلماء. وإثارة القرآن هي تدبُّره وتأمله، لقد صوَّرت آية آل عمران وما بعدها النموذج الفريد من البشر أولئك الذين تدبروا القرآن حق تدبره حتى أصبح كل واحد منهم، وكأنه مصحف يدب على الأرض ويمشي في الأسواق، لقد كان رجال ذلك الجيل من البشر على مدار الزمان يتخففون من تلاوة القرآن أو حفظه، من أجل أن يتقصدوا ويتزودوا من تأمله والعمل به، قال أبو عبد الرحمن السلمي من كبار التابعين: حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يعلموها ويعملوا بها، قال فتعلمنا العلم والعمل جميعًا.

ويقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: «لقد عشنا برهة من دهرنا وأن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وأنتم اليوم تتعلمون القرآن قبل الإيمان، فيقرأ الواحد ما بين فاتحته إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره».

نعم إن أجر تلاوة القرآن عظيم كما جاء في الحديث: «إن في كل حرف عشر حسنات لا أقول: (ألم) حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»، ولكن أجر تأمله وتدبره أعظم من أجر تلاوته، وهذا ما فهمه الصحابة وهم رواة أحاديث فضل التلاوة، فقدموا أجر التدبر على ما دونه وهو أجر التلاوة نظرًا أو حفظًا، ومن الملاحظ في آيات التدبر السابق ذكرها أنها جاءت بصيغة الخبر والزجر والحكاية عن أقوام أعرضوا عن تدبر القرآن فخسروا الدنيا والآخرة. تدل آية النساء على أن تدبر القرآن بتأمل معانيه ودلالاته سبب للألفة والوحدة والاتفاق، والإعراض عن تأمله أو الاكتفاء بتلاوته فقط سبب للفرقة والاختلاف والنـزاع، وتدل آية (ص) على

أن القرآن لم ينـزله الله إلا من أجل التدبر، وفي التدبر بركة في العلم والعمل، ومن أعرض عن تدبره فهو مسلوب العقل، أما الآيتان من سورة (محمد) ففيهما أن من لم يتدبر القرآن فهو مقلّد جامد فيه شبه بأهل الجاهلية حيث أقفلوا عقولهم فلا يصل إليها من ضياء العلم والنور شيء، وهذا على مستوى الأفراد والشعوب والأمم، وها هو القرآن بين أيدي الناس اليوم يتلونه صباح مساء، وهذه أحوالهم التي لا تُحمد!! فلم يغن عنهم شيئًا، وأما آية سورة) المؤمنين) فتدلّ على أن كل من لم يتدبر القرآن، ويتأمل آياته فهو جاهل بليد ومتخلف جامد، ولو كان يُشار إليه بالبنان عند قومه، نعم لقد وردت نصوص وآثار عن السلف توحي بالتحرُّج والتأثم في تفسير القرآن ، وجاءت نصوص أخرى تدعو إلى وجوب التدبر والتأمل، فاتخذ الناس الأولى إلى ما شاء الله لهم منهجًا؛ لأنها أسهل وأدعى إلى الركود والدعة بحجة التدين والورع وأعرضوا عن الثانية لما فيها من النفع والجد وامتثال الأمر، فمن النصوص المشعرة بالتأثم في تفسير القرآن وتأويله حديث جندب بن عبد الله عند أبي داود والترمذي: «مَن قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ»، ومثل حديث ابن عباس عند الترمذي: «مَن قال برأيه في القرآن أو بلا علم فليتبوأ مقعده من النار»، وثبت عن أبي بكر وعمر لما سُئلا عن قوله: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١]، قال أبو بكر: أيُّ سماء تظلّني، وأيُّ أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!! وقال عمر: هذه الفاكهة عرفناها فما الأبُّ؟ ثم رجع إلى نفسه، وقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر؟!

أما حديث جندب وابن عباس فلا يصح إسنادهما؛ ففي الأول سهل بن حازم القطيعي ضعفه البخاري وأبو حاتم وغيرهما، وفي الثاني عبد الأعلى بن عامر التغلبي ضعفه الإمام أحمد والنسائي وأبو زرعة وآخرون، ثم الأول مردود من حيث المتن،

فإن الصواب لا يكون خطأً بحال وكذلك العكس، وإنما قد يصيب الرجل الأمر ولا يحصل له الأجر.

أما الحديث الثاني؛ فيتعين حمل معناه لو صح سنده على من فسّر القرآن أو قال فيه برأيه من المغيبات التي لا يعلمها إلا الله كالآجال وحقيقة الجنة والنار، وكيفية صفات الله سبحانه وتعالى ونحو ذلك، أو في الأحكام الشرعية من التحليل والتحريم. ثم إن الذين حفظوا القرآن عن ظهر الغيب من الصحابة لا يتجاوز عددهم أربعة فقط (علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وأُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود) وأبو بكر وعمر ليسا منهم مع فقههما وعلمها بالقرآن، كما ذكر ذلك الإمام الذهبي وغيره، بل إن أبا بكر توفي ولم يختم القرآن، وعبد الله بن عمر بقي يحفظ سورة البقرة ثماني سنين، وهو أكثر الصحابة بعد أبي هريرة حفظًا ورواية لأحاديث رسول الله، ولما أتم حفظها ذبح بقرة شكرًا لله. أكان يعجز عن حفظ هذه السورة ببضع دقائق؟! لا والله، ولكنه الفقه والتدبر قبل الحفظ وأثناء التلاوة.

قال ابن تيمية في «جامع المسائل» (٥/ ٤١): «إن نقلة الآثار قل فيهم الفقه والعقل كما أن ذوي النظر والاعتبار ضعف علمهم بآثار النبيين، ولن يتم الدين إلا بمعرفة الآثار النبوية، وفقه لمقاصدها الشرعية».

أما الآثار المروية عن السلف كأبي بكر وعمر في التوقف من التفسير بالرأي، فغير صحيح؛ إذ كيف يجهل أبو بكر وعمر وهما عربيان كلمة (الأبّ) في اللغة؟ وتفسير القرآن باللغة أحد أنواع التفسير كما يقول ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهله، وتفسير تعلمه العرب من كلامها، وتفسير من ادَّعى علمه فهو جاهل، وتفسير تعلمه العلماء».

ثم إذا كانت آيات الأحكام (٥٠٠) آية على أكثر تقدير؛ فإن جملة آيات القرآن كما يقول ابن عباس (٦٦٠٠) آية، فهل يترك أكثر من ستة آلاف آية من القرآن بدعوى الورع والزهد، ثم هذه وأمثالها قضايا أعيان لا عموم لها، فلا تصح دليلاً، فكل من روي عنه التوقف من السلف في تفسير القرآن بالرأي في موضع فقد روي عنه التفسير بالرأي في موضع آخر، فهذا أبو بكر صاحب المقولة السابقة في تفسير (الأبّ) في سورة عبس فسر (الكلالة) في آية النساء برأيه لما سُئل عنها قال: إني سأقول فيها برأيي فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان: الكلالة ما عدا الوالد والولد».

أما عمر بن الخطاب؛ فهو أكثر أهل بدر تفسيرًا للقرآن بالرأي وكثيرًا ما ينـزل القرآن وفق رأيه، وهذا عبد الله بن مسعود يقول في تفسير آية البقرة: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ...﴾ [٢٣٦]: أقول فيها برأيي فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان: لها الصداق كاملاً، وعليها العدة، ولها الميراث»، ثم إن أغلب التفاسير المأثورة عن السلف من الصحابة والتابعين غير مسندة إلى الرسول فهي تفاسير بالرأي، بل كتب التفاسير المطبوعة المتداولة أغلبها تفسير بالرأي والدراية والقليل منها تفسير بالأثر والرواية.

ثم هل التفسير بالأثر المحمود إلا عين التدبر والتأمل الذي أمرنا الله به؟ وأوجبه على كل مخلوق من ذكر أو أنثى وصغير وكبير عامي ومتعلم ، فكيف يوجب الله علينا تدبر القرآن ومنه تفسيره، ثم يعرض الناس عنه بدعوى الورع وتعظيم القرآن؟ إنها -والله- دسيسة من دسائس الشيطان زيّنها للخاصة والعامة، وألبسها لباس الدين والورع، ورحم الله ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن يوم قال: «يأتي على الناس

زمان يخلق يدرس ويبلى القرآن في قلوبهم يتهافتون فيه تهافتًا، قيل: وما تهافتهم؟ قال: يقرأ أحدهم فلا يجد حلاوة ولا لذة يبدأ أحدهم بالسورة وإنما نهمته -قصده- آخرها ثم تلا قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد٢٣-٢٤].

وإليك يا أخي طريقة سهلة للتأمل والتدبر في آيات القرآن:

كرر الآية أو الآيات مرتين وثلاث وخمس مرات ولو بقيت في السورة الواحدة أيامًا، وحاول أن تسجل الأفكار التي ترد على خاطرك فيها.

اقرأ الآيات المراد تفسيرها من حفظك أو من المصحف مرتين أو ثلاثًا.

ثم اقرأ تفسيرها في تفسيرين على الأقل، واحرص على أن تكون طريقة كل مفسر تختلف عن طريقة الآخر.

ثم ارجع إلى تلك الآيات السابقة، واقرأها في المصحف -ولو كنت لها حافظًا- وحاول الوقوف عند كل كلمة أو حرف من الآية، وأحضر معك ورقة سجل فيها ما فهمته، وظهر لك من الآية والآيات.

ثم ارجع مرة أخرى إلى قراءة تفسيرها في واحد من كتب التفسير وقابله بما سجلته في ورقتك، ستجد أن نسبة كبيرة في التفسير المقروء بين يديك موجود في ورقتك، وإن اختلف الأسلوب، بل ربما ظهر لك معان صحيحة لم يذكرها ذلك المفسر.

وإذا أردت التأكد والطمأنينة على هذا المعنى الجديد الذي ظهر لك فعاود الخطوات السابقة (١، ٢، ٣، ٤) فسيزول عنك الإشكال، وتزداد يقينًا وإن بقيت في المعنى الجديد مترددًا فأعرضه على من هو أعلى منك في التفسير فستجده يوافقك

عليه أو بعضه.

قال المناوي المتوفى سنة (١١٣١هـ): «كم من معاني دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجرد للذكر والفكر تخلو منها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين ومحققي الفقهاء».

اللهم إني أسألك العلم النافع والعمل الصالح،،، آمين.

وكتبه

أ.د. سعود بن عبدالله الفنيسان

أستاذ الدراسات القرآنية، وعميد كلية الشريعة في جامعة الإمام سابقًا

opeikandl.com